ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد:08، العدد: 01(2023) ص: 26 - 36

تجليات الحس القومي في قصيدة النثر بين التأثيث والتلاشي نماذج مختارة من "قصائد الماغوط".

The Manifestations of the National Sense in the Prose Poem: Between Furnishing and Vanishing. Selected models from Al Maghout's poems.

د. سليم سعدلي، جامعة برج بوعريريج -الجزائر
salimsadeli9@gmail.com

د.حياة بوخلط، جامعة مسيلة – الجزائر
h.boukhalat@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
2022/04/20
تاريخ القبول:
2022/11/23
تاريخ النشر
2023/03/26

الكلمات المفتاحية:
- ✓ **الحس القومي**
- ✓ **درجات اليأس الإنساني**
- ✓ **قضايا الوطن**
- ✓ **آليات تمثيل الحس القومي**
- ✓ **الحضور والغياب في شعر الماغوط**

الملخص:

تعد قصيدة النثر آخر ما توصلت إليه الإبداعات الأدبية، فرغم مرور نصف قرن على ظهورهاإلا أن لهيبها لا يزال يرسل شرارته في كتب النقاد؛ حيث استطاع هذا الفن الشعري أن يزحزح بناء القصيدة من حيث الشكل والمضمون.واجه الماغوطفي حياته الاغتراب بكل أنواعه وشكّل هاجس الوطن وهويته المتلاشية مادة خامة عنده يسعى من خلالها إلى تأثيث معالم الذات المستلبة. هذه العناصر (قضايا الوطن، الغربة، الحزن، المرأة...الخ)والتي تعتبر أهم معطيات البحث في شعره تصور حجم الحس القومي المتأرجح بين التأثيث والتلاشي والذي يحمله الشاعر تجاه وطنه وهو في أقصى درجات اليأس الإنساني؛ إذ صرّح في بعض قصائده بأن لا مدينة ولا وطن له ليعود ويتذكر دمشق التي ظهرت كالوشم في ثبات وجداني وعاطفي وإنساني وحضاريّ،إنّها الكتابة المقاومة التي ترسم لنا لوحة الانتماء إلى دمشق الأم الوطن. ولا تزال قصيدة النثر موضوعا بكرا لما فيه من آليات تمثيل الحس القومي المتأرجح بين التأثيث والتلاشي، وكيف يمكن البحث عن هذه الجمالية وهي تصور لنا تحولات الحس القومي وسط هذه الكم الهائل من السوداوية التي لا تغادر شعره وفق تشكيل جمالي متلون، وهو موضوع دراستنا المتواضعة ؟

Article info

Received
20/04/2022
Accepted
23/11/2022

Keywords:
- ✓ *national sense*
- ✓ *Degrees of human despair.*
- ✓ *home issues*
- ✓ *Mechanisms of representing the national sense.*
- ✓ *Presence and absence in the poetry of Muhammad –M.*

Abstract :

The prose poem is the latest in literary creations. Despite the passage of half a century since its appearance, its flame still sends its spark in the books of critics. Where this poetic art was able to move the construction of the poem in terms of form and content. In his life, Al-Maghout faced alienation in all its forms and formed the obsession of the homeland and its vanishing identity as a raw material for him through which he seeks to furnish the features of the usurped self. These elements, which are considered the most important research data in his poetry, depict the size of the national sense that fluctuates between furnishing and vanishing, which the poet carries towards his homeland while he is in the utmost degree of human despair; He claimed in some of his poems that there is neither a city nor a homeland for him, to go back and remember Damascus, which appeared as a tattoo in a sentimental, emotional, human and civilized steadfastness. The prose poem is still a virgin topic because of the mechanisms of representing the national sense that fluctuates between presence and absence, and how can we search for this aesthetic when it depicts the transformations of the national sense in the midst of this huge amount of melancholy that does not leave his poetry according to a colorful aesthetic formation, which is the subject of our modest study?

مقدمة

يعد الزمن بمثابة مُعلم للبشرية، فهو يعلم الذات الإنسانية أنْ تنكسر في غربتها، أنْ تتحمل جرح أخيها الإنسان، أنْ تنزوي في زاوية الصمت لإخفاء آلام غربتها، فالإنسان لا يؤتمن، لأنه يعرف كيف ينتقد رغبات البشر الغريبة ويجلب على نفسه بنفسه أقسى الآلام فليس من الضروري أن تنطق الذات بما يسر الأذنين، بل بما يحفظ لها كينونتها المستمرة فما الضياع الذي يسود الذات البشرية، وما محله في الخطابات التي تنتجها المخيلة الإنسانية؟

يتوقف معنى وجود الإنسان على سيرورة الاغتراب النفسي؛ فاستقرار النفس البشرية لحظة عابرة لا تفسر متاهة الوجود، فالحياة الدنيا شقاء يعتري الإنسان طوال حياته. فمحاولة الإنسان الدائمة إلى تأثيث ذاته دلالة واضحة على رد فعل ناتج عن مؤثرات خارجية تدخل الذات في متاهة التلاشي، لذلك فمعنى الحياة يكمن في إمكانية رد الفعل عن طريق مواجهات تكابد الضياع، بهدف تفادي التلاشي الذاتي.

إنّ المعنى الفاعل الخاص بالألم الناتج من الحس القومي يظهر إذن كمعنى خارجي تصنعه قساوة الغربة، ولكي نحكم على الألم من وجهة نظر فاعلة يجب الإبقاء عليه في عنصر خارجيته، وهذا يتطلب منا فنا كاملاً، هو فن الذات الصّامدة. "إنّ لدى هذه الأخيرة سراً، فهي تعرف أنّ للألم النفسي معنى واحداً، هو إمتاع أحدهم(..). وإذا كان الإنسان الفاعل قادرا على ألا يحمل غربة آلامه الخاصة به على محمل الجد، فذلك لأنّه يتخيل دائما شخصاً من القدماء يمتعه ذلك الألم" (محمد بهاوي، 2013، ص 32).

تعدّدت مفاهيم الاغتراب الذاتي الذي يسود روح الشاعر، لذلك ينعدم الاتفاق بين النقاد والدارسين حول هذا المصطلح، ومن بين التعاريف التي استرعت انتباهنا أن "الإنسان يتخلّى تاريخيا عن حقّه الطبيعي بالعيش الحر من أجل انتقال السيادة منه إلى المجتمع السياسي أو الدولة "(حليم بركات، 2006، ص37). يتضح من هذا أنّ احساس الإنسان بالوحدة يجعله يبتعد وينصرف عن الجماعة إنّه ضياع يسود كوامن النفس البشرية؛ حيث "ظل الشعور بالاغتراب الذاتي من ملازمات الإنسان منذ وطئت قدماه الأرض بعد مفارقة موطن خلقه الأول، فمنذ تكوّنت المجتمعات الأولى نشأت معها وفي ظلّها الأزمات التي كانت تتمخض – في شكل أو بآخر- عن أنواع الاغتراب التي عانى منها الفرد وواجهها وفق حجم طاقاته العادية والروحية "(معتز قصي، 2012، ص47)، والناظر فيما سبق يجد أن الاغتراب كان ملازما للإنسان، وهذا ما دفع بالفرد إلى التمرّد والعصيان في تخوم هذا العالم السوداوي؛ إذ استوطن الخوف والحزن والوحدة قلبه لتنفجر منه هذه القصائد النثرية وهذا ما سنحاول التطرق إليه في قصائده:

1- الخوف النفسي وتلاشي الحس القومي:

إنّ الخوف صفة متجذّرة في كل إنسان، يعرفه "حسن علي إبراهيم، قائلاً: " الخوف قوة خفيّة راقدة في شعور ولا شعور الإنسان، وتتحرك بشكل لا إرادي.....تستيقظ في الوقت الذي يجب أن تستيقظ وبشكل لا إرادي" (حسن علي إبراهيم، د.ت، ص93). يمثل الخوف إن صحّ القول غريزة في جسم الإنسان تحدث نتيجة توقّع حدوث خطر أو وقوعه وقد " شاع استخدام الخوف ....كتعبير عن المخاوف الشائعة في مجتمع من المجتمعات أو لدى أفراد هذا المجتمع، أو الخوف من هذا الشيء، أو ذلك عموما"(فرج عبد القادر طه د.ت، ص190)؛ إذ تمثل بعض الأشياء في بعض الأحيان مصدر الخوف واضطراب الحس القومي الذي يعتري الذات البشرية، فإن أعيد حدوث هذه الأشياء يصبح الفرد في دوامة من الهلع، خشية حدوث الموقف السابق، وهذا ما حدث للماغوط؛ إذ بعد دخوله إلى السجن أصبحت تمثل بعض الأشياء هاجسا له، لتُحدِث في نفسه الرعب والذعر، ونجد هذا في قصيدته النثرية: **"كابوس العمر"**:

" كل شيء يثير حفيظتي وينغِّصُ عليَّ حياتي

الاحتلال .....الاستقلال
الابتسامات العذبة .....القهقهات العالية
...
العُري .... الحِشمة .....الابتذال.
كل هذا يخترقني كالرمح .....عندما يقرع بابي رجل أمن
ويقول لي : سأعود
أو مخابرة هاتفية من مجهول
ولذلك أتوسّل إليكم وأُقَبِّل أياديكم أن ترسلوا مندوبا لمثل هذه
المهمة ، ضابط مرور .....تموين .....إيقاع .
أعرف أن هذا التصرف مخجل ومعيب ومشين
ولكن العار أجمل من الخوف!! " (محمد الماغوط، د.ت، ص361-362).

لقد أصبح تفكير **الشاعر** ينحو منحى التلاشي والاضطراب، وكل ما يحدث في هذه الحياة أو في المجتمع يثير حفيظته، لأنها مليئة بالتناقضات حسب رأيه، ولكن الشيء الأساسي في نهاية هذه القصيدة النثرية هو حديثه عن أشياء تخصّ السجن على حد تعبيره: **"رجل الأمن مخابرة هاتفية ،مندوب ضابط مرور"**، كلّها لها علاقة بالسجن؛ إذ رغم مرور سنين طويلة على سجنه إلاّ أنّه لم ينس تلك التجربة التي سبّبت في نفسه ألما سحيقا غيرت في أعماقه معالم الحس القومي لأنها باتت تعتريه طيلة الوقت وأصبح الخوف يلازمه، لأنه يعيش حالة مخيفة فعندما سُئل عنه أجاب" إنّه الشيء الوحيد الذي أملكه من المحيط إلى الخليج، ولديَّ في أعماقي "احتياطيا" من الخوف أكثر مما عند السعودية وفنزويلا من احتياطي النفط"(خليل صويلح، 2002، ص18).

يمزج "الماغوط" شعوره بالخوف بنوع من السّخرية، ولو استطلعنا القصيدة لوجدناه يمزج هذا الشعور بشيء غير واقعي، فهو الآن خارج السجن، ولكنه ما يزال يعيش تلك التفاصيل المؤلمة من حياته، "إنّه صراع أبدي لا ينتهي إلّا ليعود من جديد"(عز الدين إسماعيل، د.ت، ص106)، ليظل هذا هاجس الماغوط، ورفيقه في الحياة الذي لن يفارقه إلا في لحظات هدوء العاصفة النفسية.

2- الحزن وتلون الحس القومي بشظايا الكآبة:

تعرفه نجية موسى بقولها: "الحزن ضد السرور وهو حالة نفسية تصيب المرء لفترة زمنية تطول وتقصر، وتتفاوت في شدتها ووطأتها بين إنسان وآخر والحزن يشكّل سمة تطغى على العديد من القصائد، وتنتشر في أعمال العديد من أعلام الحداثة"(أحمد سيف الدين، 2015، ص99)، ارتبط الحزن بالشعور الداخلي للإنسان جراء ما يصيبه من خيبات تأتي أحيانا من وسط قوميةٍ مضطربة، يعيش مجتمعها إحباطات متتالية، ليستوطن هذا الإحساس في ذات الشاعر، وقد عمد إليه الكثير من الشعراء ومن بينهم شاعرنا **"محمد الماغوط"**؛ إذ يقول في قصيدته النثرية: **"من ملفات الربيع"**:

"يا حزني المقيم وفرحي العابر
لقد رحّبْتُ بك
وصافحتك
وتحدثت إليك وجها لوجه

في مختلف شؤون الحياة
وكنتُ قريبا منك
حتى لا أكاد أسمع دقات قلبك ورفيف أهدابك
ومع ذلك لا أعرف أن كنت حقيقة أم أسطورة
مدخل قصيدة أو كابوس
وإنني لن اقترب منك
أكثر مما تقترب القبور من بعضها
.....
سأزرعك في دفاتري كأيّة مستوطنة غريبة عن محيطها"(محمد الماغوط ص323-324).

لقد استوطن الحزن في قلب الشاعر حتى عكر صفو الحس القومي؛ إذ وجد هذا الأخير –الحزن- إقامة جبرية في قلب "الماغوط"، دون إشارة إلى مغادرته، ويظهر هذا في قوله وهو يخاطب الحزن والفرح، **"يا حزني المقيم، وفرحي العابر"**، إذ أصبح الحزن دائم البقاء، أما الفرح فقد أصبح وكأنّه وميض في عتمة ، قليل الظهور في نفس الشاعر، كما يتحدث عن الحزن و كأنّه يتحدث عن صديق له ، ويظهر هذا في تصرفاته معه "كالترحيب، المصافحة، التحدث إليه، الاقتراب منه"، ليخبره في الأخير بأنّه سيزرعه في دفاتره، فجاءت كتاباته بعدها مليئة بدقات قلبه الحزينة، وبما أنّه "أحد صور العاطفة والمشاعر الإنسانية الفطرية" (عبد الله خاطر، د.ت، ص16) وبتفطّن النقاد لشيوع شظايا الحزن في كتابات "الماغوط" فقد سئل عنه فأجاب "لدى كلٍّ منّا مخزون تاريخي من الحزن، مثل الأمراض التي لا تُكْتَشفُ في الطفولة بل تظهر أعراضها لاحقا...، الحزن ليس صفة بل هو وشم حياتنا" (خليل صويلح، ص46) يرى الماغوط أنّ **الحزن كالوشم** في قلب كل شخص غيور على وطنه، لا يستطيع أيُّ أحد الاستغناء عنه ، أما وجوده وتجليه في الكتابة الإبداعية، فيرى أنّه "جوهر كلّ إبداع وتفوّق و نبوغ ، حتى الكوميديا الراقية، إذا لم يكن منطقها الحزن تصبح تلفيقا وتهريجا" (خليل صويلح، ص46) ومن وجهة نظره فإنّ الكتابة الإبداعية التي تخلو من الكوميديا السوداء ليست كتابة، وهذا ما تجلّى لنا بوضوح في قصائده النثرية، التي وإن خلت من الحزن فإنّ النظرة السوداوية تتمظهر بوضوح تام، فهو شيء يولد مع الإنسان ويرافقه في حياته إلى غاية مماته.

3- الوحدة والحرمان من شعور الحس القومي:

يكشف لنا شعور الوحدة الذي يعتري الأدباء عامة عمّا "يمكن لكيان الإنسان أن يتعرض فيه للتحقير و الإذلال والأذى و الآلام التي تفوق كل تصور"(مصطفى حجازي، 2005 ص13)، وهذا الشعور بالوحدة امتدت فصوله الملحمية الشائكة إلى حياة الماغوط، ساعده ذلك على تفجير هذه الكلمات المكتوبة بدم قلبه، فأصبح الإحساس بالوحدة رفيقه؛ إذ يقول في قصيدته " **منزل قرب البحر** ":

" وأنا أختال كالطاووس
في غرف الفحم الملتهب
حيث يتصبّب عرقي على الحقائب
وغدائر المسافرات
حاملا أطفالهن على مداخل الجزر
ضاغطا أثدائهن الصغيرة بكتفي وظهري
رافعا دفاتري القروية كالسيف البراق
في وجه العالم أجمع

وفي الليل
عندما تظلم الأمواج كالقبور
وتسيل دماء الأسرى تحت الأشرعة الغاربه
سأقف على موجة عالية
كما يقف القائد على شرفته
و أصرخ :
إنني وحيد يا إلهي ."(محمد الماغوط، 2006، ص95).

يعاني الماغوط من الوحدة، لذلك نجده يقسّم شخصيته إلى قسمين: القسم الأول: الذي يشبّه فيه نفسه بالطاووس في قوله "**وأنا أختال كالطاووس**"، فهو يتبختر وسط الفحم الملتهب، وهذا في وضح النهار، أمام أعين الناس ،إلاّ أنّه في صورته هاته، يتصبّب عرقا على الحقائب؛ حيث يقول "**يتصبب عرقي على الحقائب**" "**وغدائر المسافرات**"، كما تحدث على حمل المسافرات لأطفالهن، أمّا القسم الثاني يظهر فيه الوجه الخفي المليء بالسواد والدماء والألم الذي يعتصر قلبه بسبب الحالة التي آل إليها، لأن " الشعور بالوحدة النفسية ينشأ نتيجة حدوث خلل في شبكة الحس القومي للفرد سواء كان ذلك في صورة كمية (لا يوجد عدد كاف من الأصدقاء)، أو في صورة كيفية، (افتقاد المحبة والألفة والتواد بين الآخرين)"(حنان بنت أسعد محمد فوج 2002، ص19)، ومما سبق يتضح أن الشعور بالوحدة حالة ذاتية تعتري هوية الفرد بعينه، ليجد "الماغوط" نفسه واقعا في شباكها-الوحدة- كيف لا وهو يجري في عروقه مجرى الدّم، وقد اعترف بها في قوله "**إنني وحيد ياإلهي**"، فهو "ابن الحياة التي لا سقف لها، لأنّه ولد في العراء، وظل يحاول ستر عورته إلى آخر حروفه الهاربة من أقفاص اللغة، نحو الحرية وهي متلبسة بالجريمة الكاملة "(خليل صويلح، ص9). ومن هنا فإنّه، كما ذكر خليل صويلح: " ولد وحيدا في هذا العالم ، وطفق يرسل قصائده معبرا عن وضعه رافعا لواء الوحدة، فكانت هذه الوحدة " وحدة غاضبة لا يرضيها شيء ...وحدة الألم الكبير: فمن لا يملك غير الآفاق لا يصل إليها، وتمتلئ أعماقه بالمهاوي"(أدونيس، 1979، ص55)، وبالتالي فقد ظلّت وحدة الماغوط متلألئة في غياهب الظلام لا أحد يشتكي له همّه، ولا أنيس له في وحدته، إلاّ القلم الذي كان أنيسه الوحيد، للتعبير عما يجول في خاطره، لتبقى هذه الأخيرة جزءا لا يتجزّأ منه إلى أن وافته المنيّة.

بعد اكتواء "الماغوط" بلهيب وحدته، وبعد أن أصبح الألم هو الطابع السائد في واقعه الكئيب، راح يفتح المغلق من أسراره وطفولته، ليصف لنا قسوتها، وفي ذلك يقول في قصيدته المعنونة "**تبغ وشوارع**":

"طفولتي يا ليلى.....ألا تذكر بيها
كنت مهرجا.....
أبيع البطالة والتثاؤب أمام الدكاكين
ألعب الدَّحْل
وأكل الخبز في الطريق
.....
وبين المنازل المتسلخة كأيدي الفقراء.
ككل طفولتي
ضائعا .....ضائعا
أشتهي منضدة وسفينة.....لأستريح
لأبعثر قلبي طعاما على الورق."(محمد الماغوط، ص32-33).

يعود الماغوط إلى طفولته المتذبذبة، ليستعيد ذكرياته ويرويها لحبيبته "ليلى" فيصوّر لنا طفولته المسلوبة، الضائعة والمتميزة عن باقي بني جيله في قالب لا يخلو من تراجيديا الحس القومي والتي تبقى في الذاكرة المجتمعية ولا تنْمَحي، إلّا أنّها كانت أليمة، وقد تسرب ألمها إلى شعره فقد كان "مهرجا يبيع البطالة والتثاؤب"، "يلعب بالدّحل"، "يأكل الخبز في الطريق ". كل هذه الكلمات ساهمت في التعبير عنها – الطفولة – فحرّكت انفعالاته، وفجّرت ينابيع الشقاء الذي لازمه منذ الصغر، ليحنّ إلى الأيام الماضية. فالحنين للطفولة حنين إلى طقس مفقود والهروب الرومانتيكي من الواقع و العودة إلى الماضي أو التوجه إلى المستقبل .... هو بمثابة تعويض للإنسان بواسطة الوعي عن ذلك الواقع الحقيقي(ينظر: محمد راضي جعفر، 1999، ص51) لقد أصبح الحنين إليها (الطفولة) هروبا من الواقع الاجتماعي وسبب ذلك وحشة الوحدة والغربة؛ حيث يرى الفرد نفسه كالغريب المهاجر الغائب عن مجتمعه الأصلي، **فينتابه التمزّق الحسي** والألم النفسي المرير، كما نستشف من القصيدة النثرية كذلك شوق "الماغوط" إلى المنضدة والدراسة يقوله "أشتهي منضدة وسفينة .....لأستريح " فنجد أن الشاعر يحلم بالعودة إلى **طفولته الغائبة** المتلألئة في الظلمات؛ إذ يقول "الماغوط" في حوار له عن الطفولة :" أجمل ما في طفولتي أنّها انتهت بسرعة، وأقسى ما فيها أنّها لن تعود أبدا وما بين طفولة الجسد وطفولة الروح ، لم أنسج لحياتي خيطا واحدا، كنت دائما أغزل والآخرون يلبسون"(خليل صويلح، ص55). كانت طفولة الماغوط قاسية، كل أقرانه وضعوا لأنفسهم مستقبلا، وظلّت أحلامه تائهة في غياهب الظلمات فكانت طفولته بعيدة بعد السماء عن الأرض متّسمة بالقساوة، وهذا الحنين العظيم راجع كما أسلفنا إلى الواقع القاسي الذي جعله غريبا، وهو في أحضانه.

4- حضور الوطن:

إن حبّ "دمشق" يجري في عروق "الماغوط" فقد ترعرع فيها، حَزِن وفَرِح، كانت طفولته فيها وما أصابه جرائها إلاّ أنّه لا يزال يحمل في نفسه شحنة عاطفية اتجاهها يقول في قصيدته النثرية: **"أمير من المطر وحاشية من الغبار"**.

" إنّها دمشق
دمشق؟ لا أعرف أُمًّا أو شقيقة بهذا الاسم.
أهي خزانة أم مطرقة أم مرآة؟؟
إنها مدينتك يا مولاي
مدينتي؟ لا مدينة لي سوى جيوبي
مدينتك وطنك...
وطني؟ لا وطن لي
سوى هذه البقع والخربشات على الخرائط
وهذا الدخان الذي أنفُثُهمن
شفتي كل لحظة
بلى يا مولاي
كذكر الحواري الضّيقة وأشباح المقابر
.....
وإبر الجدّات المسنّات
بلى ... بلى
تذكرتها

دمشق المحدوبة أمام الصنوبر
دمشق الوحل، النجوم ، فقاقيع الحمى
.....
كيف أهجرها
وقدماي منغرستان في أرصفتها
كَنَابَيْن في لثّة
إنّي أحبّها يا رجال
ولن أخونها
ولو ذرفت الكسور الدورية للدموع" (محمد الماغوط، 2006، ص174-175-176-181).

لم تخل إبداعات "الماغوط" من الحديث عن الوطن، فرغم ما أصابه من آلام إلا أنّ حسه القومي النابض بقي صامدا أمام كل تلك التراجيديا التي مرّ بها؛ حيث نلحظ في بداية قصيدته النثرية، وكأنّه يتبرّأ من وطنه؛ إذ ادعى بأن لا مدينة ولا وطن له، ليعود ويتذكر دمشق التي ظهرت "مفردة في ثبات وجداني وعاطفي وإحساسي وحضاري. تاريخيا إنّها التكوين والخلق والحركات الفكرية والثقافية والنضالية، وعلاقته الانتمائية بالعروبة تبدأ بأنّها الأم الحبيبة"(هشام شريف،2016، ص79).

لقد كَبُر الماغوط على حسه القومي لتكون دمشق الوطن الذيي أحبه كثيرا يقول في ذلك "**دمشق مدينة أنت تحبها وهي لا تحبك، وسبق أن قلت عن دمشق أنها مدينة أعطيتها صدري أربعين عاما، ولا أجرؤ على إعطاءها ظهري ثانية واحدة ... دمشق سكنتي، لذلك لا أعرف أن ابتعد عن دمشق**"(خليل صويلح، ، ص57). لقد رسخت دمشق في القصائد الماغوطية؛ إذ كانت حاضرة في وجدانه ومقيمة في كيان هويته، فهي الحب والطفولة، الفرح، والألم، الإقامة والغربة، ولكن رغم كل هذا إلا أنّ هذا الشعور بدأ يتلاشى في نفس "الماغوط"، إنه كما صرحنا سالفا في المقدمة ذلك الشعور المزودج (الحضور– الغياب)؛ الذي لا يخلو من مرارة الحيا؛ إذ أصبح الشعور بالغربة يراوده حتى استقر في ذاته، لذلك أصبح يرى نفسه غريبا عنها بسبب التغيرات التي طرأت على كيانها، فيقرّ –الماغوط- بهذا على حد تعبيره: "لكن دمشق التي أحب بقيت في دفاتري، لأنّني اليوم أشعر بغربة فيها، الناس تغيّرت وليست الأمكنة فحسب"(خليل صويلح، ص57). تعد هذه الشهادة بمثابة إقرار فصيح "للماغوط" بالشعور الذي يتملّكه لتأتي قصائده النثرية حول دمشق "معبرة عن صرخة تنطلق من أعماق الألم والتمزّق الإنساني، إنّها ضربات الواقع الأليمة التي توالت على الشاعر"(نجية موسى، ص 93).

فلم يتغير الناس فحسب، بل حتى الأماكن التي كان معتادا على المكوث فيها، أو بالأحرى التسكع فيها، فقد تغيرت وأصبح بعدها غريبا في وطنه، ليكتوي بنارها، ويدفع ثمن تعلقه وغرامه بها.

يقول في قصيدته "**بكاء السنونو**":

"سأحبّ شعبي
يا شعبي احتضني
أنت الأب الحكيم
وأنا الطفل الضّال
أنت السّيل الجارف
وأنا الكوخ المتداعي
أعطني فرصة أخيرة وانتظر

سأحبّ عمّالك وفلاّحيك
سأعتزّ حتى ببغاياكوأوحالك
وأطلي بها جبيني كالهندي المحارب
سأقف جامدا كالتمثال عند تحية العلم
وأصرخ كالمجنون في المظاهرات" (محمد الماغوط، ص224-225).

هنا يتحدث الشاعر عن دمشق مسقط رأسه ويفتخر بها، وينوّه إلى أنه لن يتخلّى عنها مهما طال الزمن وتغيرت الأحوال، فالشاعر هنا يسعى إلى الالتزام بقضايا أمته، يسعى إلى الدفاع عنها والوقوف بجانبها مثلما قال:

سأقف جامدا كالتمثال عند تحية العلم.

5- رمز الأنبياء وحضور حنين الحس القومي:

وهذا ما عمد إليه الماغوط في قصيدته النثرية الموسومة بـ **"دخان الخرائط"** يقول فيها:

"يا قطار الشرق السريع هذه ليست حقائبي
أيّتها الصحراء هذه ليست حقائبي
يا حسن الصباح هذه ليست قلاعي
.....
أيّها المسيح هذا ليس صليبي
أيّها المهدي المنتظر لست بانتظارك
موسى هذه ليست سينائي" (محمد الماغوط، ص171-172).

عمد الشّاعر في هذه القصيدة إلى استخدام رمز "المسيح وموسى عليهما السلام"، ليعبّر من خلالهما عن الواقع المأساوي الذي يعيشه، و الألم الإنساني الذي يكابده؛ إذ نجده يعمد إلى التشبّث بفكرة البقاء في وطنه،و يظهر هذا في قوله: **"موسى هذه ليست سينائي"** وكأنّه بذلك أراد أن يعلن تمرّده و عصيانه للسلطة، رافضا بعدها كل أشكال الاغتراب عن وطنه. وقد ولج "الماغوط" إلى توظيف التراث الديني لأنّ فيه "روابط وثيقة تربط بين تجربتهم وتجربة الأنبياء، فكلّ من النّبي والشّاعر الأصيل يحمل رسالة إلى أمّته"(علي عشري زايد، 1997، ص77)، فلا تخفى على المتبصر، تجربة الأنبياء في إيصال الرسالة الاجتماعية، لما فيها من رابطة بين العبد الضعيف و الإله الرحيم من فوقه.

ولا ننسى ما لهما من دلالة فحديثه عن المسيح "عيسى عليه السلام وموسى عليه السلام"، فرغم أنّه كان يخالفهما في ردّه حول بعض آراءه، إلّا أنّ المتفحِّصَ لهذين الرمزين يجد أنّ لهما دلالة :"فعيسى عليه السلام" هو رمز القوّة والفداء و الصّلابة والوقوف في وجه الأعداء والظّالمين، أما سيّدنا "موسى عليه السّلام" فهو رمز القوّة كذلك والجَلَدْ، فرغم ما مرّ به من مظاهر الطغيان و الغطرسة، انطفأت شرارة الظلم، و انفلق الصبح. فمزج بين تجربته وتجربتهما التي سببها الأعداء لهما.

لقد وجد الماغوط في هذين الرمزين متنفّسه الوحيد، ليسقط عليهما آلامه و آماله، فهما يحملان دلالات تنطبق أو تتوافق مع معاناته، وهذا ما منح القصيدة فاعلية خصبة، لأنه ربط بين الماضي والحاضر الشيء الذي اكسب القصيدة طاقة و جمالا.

6- المرأة:

شغلت المرأة منذ القدم مكانة واسعة في الشعر العربي؛ بحيث راح كل واحد منهم يعبّر عنها بطريقته الخاصة، فمنهم من استخدمها كأمّ في قصائده تعوض له تلك الهوية المشتتة وبعضهم كحبيبته، في حين يراها الآخر كابنته، وهناك من وظفها في صورها الثلاث، وسنعمد إلى اتخاذ المرأة كنموذج في قصائده النثرية؛ إذ

"تعد صورة الحبيبة أو الزوجة الصورة الغالبة على صفة المرأة في الشعر، فقد كانت مفتاحا للحوار الشعري والمباهاة الشخصية وملهمة الإبداع الشعري، مما يدل على المكانة الرفيعة التي وصلت إليها المرأة في هذا العصر"(فاطمة تجور، د.ت، ص20)، كما أسلفنا الذكر، فقد شكلت –المرأة- الطابع الغالب في كتابات الشعراء، فقد تكلم عنها "الماغوط" بشكل كبير؛ حيث يقول في قصيدته المسماة: **"دفاتر الضباب"**:

سنية ...
أيّتُها النخلة البسيطة
تعالي وشاركيني كلّ ما أنا فيه
وإحصاء الهدايا والألقاب ومصادرها وامتيازاتها
حتى أوراق الغار استعملها كمنكِّه للطعام والحساء
أين أنت؟
أين ذلك الأمل العابر بين نهديك كالسراب" (محمد الماغوط، ص121).

تمثل "سينية صالح" في حياة "الماغوط" السمة البارزة في أعماله الإبداعية لأنّها ملاذه الذي يفر إليه، فقد كانت حبه الوحيد ويتمثل ذلك في قوله: "سنية هي حبّي الوحيد، نقيض الإرهاب والكراهية، عاشت معي ظروفا صعبة، لكنها ظلّت على الدوام أكبر من مدينة" (خليل صويلح، ص43).

وبهذا الاعتراف النابع من قلب الماغوط وبالعودة إلى القصيدة نجده يشبّه "سينّية صالح" بالنخلة البسيطة، وهي بذلك ترمز إلى العلو والشماخة والنقاء والصفاء، فراح يناديها لترى ما يُعِدُه لها، وما وصل إليه من شهرة في قوله **"تعالي وشاركيني كل ما أنا فيه ... وإحصاء الهدايا والألقاب ومصادرها وامتيازاتها"**، فهي تمثل عنده الحضور الحسي في أبهى تجلياته الصفحة المفقودة بين دفاتر الحياة، لتعوِّضه عن كل ما فقده، ونلمح في هذه القصيدة رثاء الشاعر لـ "سينية" ويتمثل ذلك في قوله **"أين أنت"**؛ إذ بفقدانها فقد طعم الحياة، ولم يعد لها ذلك المذاق الذي يناشده الإنسان في هذا العالم، وليس هناك سبب لأنْ يعيش، وإذا تصفحنا هذه القصيدة النثرية فما "أن ننتهي منها لنبدأ متعة الإحساس والوعي بشيء كنّا لا نحسّه ولانراه، بهذا العمق وبهذا الكلّي فينا، إنّه الفني يترك بصماته على الذاكرة، يوشح القلب بلونه، ولكنّه يوقظ الفكر أيضا" (حكمت صباغ الخطيب، يمنى العيد، 1985، ص140). وهذا ما نلاحظه عند "الماغوط"؛ إذ ترسل قصائده شظايا في القلب، توقظه من غيبوبته، فهي كالسهام تحرضه على التفكير في المزيد، وبما أن الشاعر روحه آسرة بامتياز، فقد استطاع الاستيطان في القلب، فحبه "لسينية" ساعده على إثبات ذلك الحس النفسي المفقود أي عوّضته ذلك الفراغ الذي كان يعيشه، فأصبحت بعدها المرأة الوحيدة "التي يتذكرها بحزن وحميمية، ... هذه المرأة الناحلة التي روضت شراسته في الحياة" (حكمت صباغ الخطيب، يمنى العيد، ص9)، لذلك صعب على باقي النساء ترويض شراسة "الماغوط" باستثناء "سينية" التي أضافت على حياته ألوانا وبعثتها الحياة وهي ليست ذكرى؛ إذ كيف يتذكر شيئا لم يغب عن خاطره لحظة واحدة؟ فقد كانت نعم الزوجة نعم الوطن، نعم الرفيقة، التي ساندته في حياته.

7- تكرار الكلمة وحضور الوطن:

يعتبر هذا النمط من التكرار من "أبسط أنواع التكرار وأكثرها شيوعا؛ إذ أنّها تعد خصّيصة أساسية من خصائص البنية التركيبية" (محمد صلاح زكي أبو حميدة، 2000، ص302)، لذلك عمد إليها الكثير من الشعراء كلّ له دافعه، ومن بينهم "الماغوط" الذي نجده يعمد تكرار كلمة دمشق في قصيدته النثرية **"أميرة من المطر وحاشية من الغبار"**:

"بلى . بلى

تذكّرتها
دمشق المناسينوالإهراءات
دمشق البيضة المسلوقة
دمشق الخيول الجامحة
والسنن التي تسد وجه الأفق
دمشق الغبار
دمشق النجوم و المشاعل المضاءة على ذرى الأورال
دمشق الليل...و القنديل المطفأ بالشفتين
دمشق الحداء والحناجر الممسوحة برايات كسرى
دمشق التأتأة" (محمد الماغوط، ص178).

لقد شكلت لنا كلمة **"دمشق"** حضورا مختلفا؛ إذ خلقت "ذلك الايقاع الهامس الذي يصدر عن الكلمة الواحدة بما يحمل في تأليفها من صدى ووقع حسن"(عبد الرحمان ألوجي، 1989، ص74)، لندرك بعدها أنّ التّكرار ليس اعتباطيا أو عشوائيا، وإنّما يعج بدلالات كثيرة ومختلفة تنم لنا عن أهمية حضور الوطن الأم رغم الألم الذي يعانيه الشاعر داخل وطنه ليعزف لنا هذه الأنشودة على أوتار الظلم والاستبداد والقهر الذي يعيشه، "فالتّكرار يضع في أيدينا مفاتحا للفكرة المتسلّطة على الشاعر" (نازك الملائكة، 1962، ص242-243)، وهذا ما وجدناه لدى "الماغوط" فبتكراره لكلمة "دمشق" أدركنا مدى الحرقة التي تلتهب داخله لتنقل لنا حسرته الصارخة على وطنه المندثر .

8.خاتمة :

ها نحن نرسو على آخر ضفة بعد إبحارنا العميق في ثنايا قصيدة النثر، وقد انتهى البحث إلى نتيجة مفادها أن:

معظم قصائد الماغوط كانت مضطربة، بين الإثبات والمحو، تهكمية لاذعة، قامت على عنصر المفارقة، وهذا كلّه يعكس الشرخ الكبير والعميق بين الشاعر والعالم السّوداوي الذي يحيا فيه نتيجة الضغوطات النفسية التي فرضتها السلطة عليه وجعلته يعمد إلى استخدام الكتابة الشعرية التي تعاني من شرخ معنوي في طياتها، من أجل التنفيس عمّا يختلج كوامن ذاته المستلبة بطريقة غير مباشرة، ملتوية، انسيابية في معانيها.

معظم قصائدالماغوط كانت ساخرة، تهكمية لاذعة، قامت على عنصر المفارقة،وهذا كلّه يعكس الشرخ الكبير والعميق بين الشاعر والعالم السّوداوي الذي يحيا فيه نتيجة الضغوطات النفسية التي فرضتها السلطة عليه وجعلته يعمد إلى استخدام القناع والرمز من أجل التنفيس عمّا يختلج كوامن ذاته المستلبة بطريقة غير مباشرة، ملتوية، انسيابية في معانيها.

ويمكننا القول في هذا السياق أنّ هذا المعنى الجمالي الذي يكسو قصائده، ربما يخرج بنا إلى دلالات متعددة ومتنوعة، منها ما يدخل في معنى الحضور والغياب، الحب الكراهية، الألم، الحنين، ومنها ما يدخل في عالم الكآبة والخوف والضياع، والماغوط في هذا السياق يسعى إلى ترميم القصائد النثرية بشعرية تكون كالخريف العاري حينا وحينا أخرى كالربيع المزهر الذي لا يخفت بريقه من عيون الطبيعة الخالدة.

قائمة المراجع:

[1]- محمد بهاوي(2013) الرغبة، نصوص فلسفية مختارة ومترجمة، مبحث: الرغبة والألم، (ط1)، أفريقيا للشرق المغرب.

[2]-حليم بركات، (2006): الاغتراب في الثقافة العربية، متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، (ط1)، مركز دراسات الوحدة المغربية بيروت-لبنان، أيلول سبتمبر.

[3]-معتز قصي ياسين، (2012): الاغتراب في شعر احمد مطر، مجلة دراسات البصرة السنة السابعة، العدد 14.
[4]-حسن علي إبراهيم،(د.ت): مصادر الخوف والواقع إحساسا وشعورا، (دط)، مكتبة الإسكندرية، ص93.
[5]- فرج عبد القادر طه، محمد السيد أبو النيل، شاكر عطية قنديل، حسن عبد القادر محمد، مصطفى كامل عبد الفتاح،(د.ت): معجم علم النفس والتحليل النفسي، (ط1)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
[6]- محمد الماغوط، (د.ت): شرق عدن... غرب الله، دط.
[7]- خليل صويلح،(2002): اغتصاب كان وأخواتها – محمد الماغوط- حوارات حررها خليل صويلح، (ط1)، دار البلد.
[8]- عز الدين إسماعيل، (د.ت): التفسير النفسي للأدب، (ط4)، دار غريب للطباعة، القاهرة.
[9]- أحمد سيف الدين ، (2015): ظاهرة الحزن في الشعر العربي الحديث، مجلة جامعة البعث، المجلد 37، العدد 10.
[10]- عبد الله خاطر، (د.ت): الحزن والاكتئاب على ضوء الكتاب والسنة، راجعه وقدم له عبد الرزاق بن محمد الحمد (دط)، المنتدى الإسلامي.
[11]- مصطفى حجازي، (2005)، الإنسان المهدور، (ط1)، المركز الثقافي المغربي، الدار البيضاء- المغرب.
[12]- محمد الماغوط،(2006): الأعمال الشعرية، حزن في ضوء القمر، غرفة بملايين الجدران، الفرح ليس مهنتي-ط2،دار المدى للثقافة و النشر.
[13]- حنان بنت أسعد محمد فوج، (2002): الخجل وعلاقته بكل من الشعور بالوحدة النفسية وأساليب المعاملة الوالدية لدى عينة من طالبات المرحلة المتوسطة المدينة المنورة مكة المكرمة، رسالة ماجستير، مخطوطة، جامعة أم القرى- مكة المكرمة.
[14]- أدونيس، (1979): مقدمة للشعر العربي، (ط3)، دار العودة-بيروت، ص55.
[15]- ينظر: محمد راضي جعفر، (1999): الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر (مرحلة الرواد) دط، من منشورات اتحاد الكتاب العرب.
[16]- محمد الماغوط،(2006): الأعمال الشعرية، الفرح ليس مهنتي، (ط2)، دار المدى للثقافة و النشر.
[17]- هشام شريف، (2015-2016): نزار قباني شاعر المراة والوطن، رسالة ماستر، مخطوطة، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان- الجزائر.
[18]- نجية موسى، ظاهرة الحزن وبواعثها في الشعر العربي المعاصر، جامعة تلمسان، الجزائر،-www.univ-chlef.dz/djossour/wp-content/uploads/2017/02/.
[19]- علي عشري زايد، (1997): استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، (دط)، دار الفكر العربي-القاهرة.
[20]- فاطمة تجور، (د.ت): المرأة في الشعر الأموي (دراسة)، دط، من منشورات اتحاد الكتاب العرب.
[21]- حكمت صباغ الخطيب (يمنى العيد)، (1985): في معرفة النص، دراسات في النقد الأدبي،ط3، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.
[22]-محمد صلاح زكي أبو حميدة، (2000): الخطاب الشعري عند محمود درويش –دراسة اسلوبية- كلية الآداب جامعة الأزهر، غزة.
[23]- عبد الرحمان ألوجي، (1989): الإيقاع في الشعر العربي، (ط1)، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق حزيران.
[24]- نازك الملائكة،(1962): قضايا الشعر المعاصر،(ط1)، منشورات مكتبة النهضة، بيروت.